دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد 33، العدد 2، 2006

الأنبياء وأتباعهم في القرآن
بين الإخراج من الأرض والتمكين فيها

نايل ممدوح أبوزيد *

ملخص

تعالج هذه الدراسة قضية التمكين للأنبياء وأتباعهم في الأرض، من خلال النظر في آي الكتاب المبين، ومحاولات أعدائهم المتكررة على مر السنين، لإخراجهم منها والسبل التي ينبغي أن تسلك لصد هذه المحاولات، ويتحقق من خلال الحرص عليها والتمسك بها التمكين للمؤمنين في الأرض، وبفقدها يتعرضون للإخراج محزونين، ويحرمون من نعمة التمكين، حتى يعودوا لتلك السبل التي أرشدهم إليها كتاب الله، وبينتها سنة رسول الله ﷺ.

الكلمات الدالة: الأنبياء وأتباعهم، الإخراج من الأرض، التمكين في الأرض.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الله، عز وجل، خلق الإنسان، وأنزل له أحسن الحديث، وأصدق البيان، مرتبطا بأعلى درجات الدقة وفصاحة اللسان، ليرشده إلى ما فيه سعادته، وما يحقق له الأمان.

على الرغم من هذه النعم العظيمة والآلاء الكبيرة إلا أن كثيرا من الناس يعادي المنهج الرباني، ويقاوم أهله، ويحاول إخراجهم من أرضهم وديارهم، بالقتل والإبادة تارة والسجن ومصادرة الفكر تارة أخرى، والطرد والإخراج إلى أرض غير أرضهم تارة ثالثة، ولا غرابة في ذلك، فهو العداء القديم الجديد من أعوان الشيطان لأتباع الرحمن، الأمر الذي دفعني لكتابة بحث يتعلق بهذا الموضوع، أنظر من خلاله نتيجة هذا العداء وسنة الله فيه على مر السنين والأيام، وعاقبة ذلك.

ومما زاد في رغبتي وشوقي للكتابة فيه، ما نراه في هذا الزمان من محاولات لتشريد كثير من المسلمين وإخراجهم من أرضهم وديارهم، كما في فلسطين ولبنان، وفي الشيشان، وسائر أرض البلقان، وفي العراق وكشمير وأفغانستان، وغيرها من البلاد الإسلامية.

فرأيت بناء على تلك الرغبة أن أنظر سنة الله في هذا الأمر، من حيث التمكين للمؤمنين والسبل التي أرشدهم إليها القرآن لحماية أنفسهم والحفاظ على أرضهم، ورد كيد عدوهم، من خلال النظر في آي الكتاب المبين؛ ذلك أن الله جعل في هذا الكون أمورا مسببة عن أمور، وربط بينها بإرادته، وقد بحثت بقدر طاقتي وجهدي، فلم أجد بدأً من إفراد هذا الموضوع بالبحث، لعلمي بأهميته، وكانت خطتي فيه على النحو التالي:

المقدمة: وفيها أهمية البحث وخطته.

المبحث الأول: محاولات إخراج الأنبياء وأتباعهم.

وفيه مطالب:

المطلب الأول: إخراج نبي الله آدم، عليه السلام، وزوجه.

المطلب الثاني: محاولة إخراج نبي الله نوح، عليه السلام، ومن معه.

المطلب الثالث: محاولة إخراج نبيي الله هود وصالح، عليهما السلام، ومن معهما.

المطلب الرابع: محاولة إخراج نبيي الله إبراهيم ولوط، عليهما السلام، ومن معهما.

المطلب الخامس: محاولة إخراج أنبياء الله شعيب وموسى وعيسى، عليهم السلام، ومن معهم.

المطلب السادس: محاولة إخراج خاتم النبيين محمد - صلى الله عليه وسلم- ومن معه.

المبحث الثاني: سبل التمكين في الأرض للمرسلين وأتباعهم كما أرشد إليها القرآن، وفيه مطالب.

المطلب الأول: تعميق الإيمان الصادق بالله في قلوب الناس.

---

* قسم أصول الدين، كلية الشريعة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2005/3/16، وتاريخ قبوله 2005/10/10.

© 2006 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

المطلب الثاني: إقامة شرع الله في الأرض.
المطلب الثالث: موالاة المؤمنين والحذر من نصرة الظالمين.
المطلب الرابع: إعداد القوة للقتال في سبيل الله.
الخاتمة: وفيها نتائج البحث وبعض التوصيات.

المبحث الأول: محاولات إخراج الأنبياء وأتباعهم

إن أعوان الشيطان وأتباعه لا يتركون أهل الإيمان يؤدون عبادتهم بأمان حتى وهم لا يتعرضون للأصنام والأوثان، فكيف وأهل الحق مطالبون بأن يمحقوا الباطل، ويحقوا الحق؟ ولذا نجد العصاة على مر السنين يقفون في وجوه الأنبياء وأتباعهم، محاولين صدهم عن الحق، وردهم إلى حظيرة الباطل، فإن عجزوا انتقلوا إلى القوة والشدة، لإخراجهم من الأرض بالقتل أو التغريب والتشريد، تبعا لمحاولة شيطانهم الذي اتبعوه، وهو إبليس، الذي بذل جهده في إخراج آدم -عليه السلام- ولا غرابة أن يصدر عنهم ذلك، فالحق والباطل لا يتفقان، وهي سنة كونية تعرض لها جلّ الأنبياء، وقد أشار إليها القرآن في قول الله تعالى: "**وقالَ الذين كفَرُوا لِرُسُلهم لنُخْرجنكُم من أَرضنَا أَو لتَعُودُن في ملتنَا فَأوحى إِليهم ربهُم لنُهلكَن الظالِمين**"(إبراهيم/ 13). وهذا ما يرشدنا إليه تتبع الآيات، من خلال النظر في ما حوته من سيرة المرسلين، وذلك كما يأتي:

المطلب الأول: إخراج آدم عليه السلام وزوجه

إن أول محاولة لإخراج أهل الإيمان كانت من أرض الجنة لآدم، عليه السلام، وزوجه حواء، فكأن خروجهما خروج لذريتهما، حيث حاول عدو الله إبليس إخراج نبي الله آدم(1) منها، واستطاع بمكره وخداعه وحيلته أن يوسوس لآدم، ويخرجه من الجنة، وقد سبق ذلك التحذير الإلهي لآدم من عدوه، قال تعالى "**فَقُلْنَا يا آدم إِن هذَا عدُو لَك ولزوجِك فَلا يُخْرِجنكُما من الْجنة فَتَشْقَى**" (طه /117).

وانظر إلى دقة النظم وهو يحذر من نتيجة الإخراج وعاقبته بأن فيه شقاء وعنتا؛ إذ الإخراج من الأرض التي ألفها الإنسان، فيه ألم ومرارة في كثير من الأحيان، ولذا نجد القرآن يقرن بين القتل والإخراج من الأرض في قوله تعالى: "**ثُم أَنْتُم هؤُلاء تَقْتُلُون أَنْفُسكُم وتُخْرِجُون فَرِيقًا منكُم من ديارِهم**" (البقرة/ 85)؛ فالخروج من الأرض في بعض الأحيان يساوي خروج الروح من الجسد وذلك للمخاطر الكثيرة التي تترتب على الاغتراب.

وفي تعبير القرآن عن الشقاء بالإفراد بدلا من التثنية، غاية في الدقة والبيان، فآدم هو الرجل وهو الذي سيتحمل عناء الأسرة، لكونه راعيها المسؤول عنها؛ "فالرجل هو الذي يتعب ويشقى في حركة الحياة، والإسلام كرم المرأة، وأراحها من شقاء الحياة وحركتها، وجعل لها مهمة أخرى غير الشقاء"،(2) وإن كانت هذه المهمة محاطة ببعض العنت والصعوبات، وهي ترتيب أمور الأسرة داخل البيت، ولكنها مهمة يشاركها الزوج في بعض جوانبها أيضا؛ يقول الصابوني: "وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل، ولاستلزام شقائها لشقائه"(3) فلا أرى أن مراعاة الفواصل وملازمة شقائها لشقائه، هو السبب فحسب، لما سبق ذكره، ولأنه ليس كل شقاء يصيب الرجل يترتب عليه شقاء يحل بزوجته.

إن إبليس عدو لآدم وبنيه، فقد بذل قصارى جهده من أجل إخراجه من الجنة، ليوقعه في الشقاء والمشقة، فأخرجه فكان خروجه وهبوطه مع زوجته إلى الأرض خروجا لذريتهما"لأنهما لما كانا أصل الإنس ومتشعبهم جعلا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: "**قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**" (البقرة، /38) وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم"(4).

وبعد وقوع هذا الفعل من إبليس تجاه أبينا آدم -عليه السلام- جاء التحذير الرباني لنا من أن يفتننا إبليس عن طريق الهدى، ويخرجنا منه كما أخرج آدم - عليه السلام- من الجنة التي كان يعيش فيها مع زوجه في رغد وهناء، فقال سبحانه وتعالى: "**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**" (الأعراف/ 27)، يقول الشعراوي في حقيقة هذا الإخراج: "أي لا تدعوا الشيطان يفتنكم ليخرجكم من جنة التكليف(5)، كما فتن أبويكم فأخرجهما من جنة التجربة، وهذا أسلوب يقال له الاحتباك ... وهو أن يحذف من الثاني ما يشير إليه الأول، فأخذ لا يفتننكم الشيطان وحذف ليخرجنكم من جنة التكليف وفي استكمال الآية جعلها كما أخرج أبويكم من الجنة وحذف كما فتن أبويكم، فإذا أخذنا هذه العبارة بعد الحذف كان الأسلوب هو منتهى الإيجاز والإعجاز"(6).

ولكن ماذا كانت نتيجة هذا الإخراج؟ هل أفلح إبليس - عدو أهل الإيمان- بالاستمرار في مراده؟ أم كانت العاقبة النجاة لآدم – عليه السلام-؟ لقد جاء الخطاب الرباني لآدم عليه السلام ولكل من تبع منهج الله، ببشرى الأمن، والسكينة، والاستقرار، قال تعالى: "**فَإما يأْتينكُم مني هُدًى فَمن تَبِع هُداي فَلا خَوفٌ عليهِم ولا هُم يحزنون**" (البقرة/ 38).

لقد كانت نهاية المطاف استقرار آدم على الأرض بعد الهبوط من الجنة، ليكون الالتجاء والتوبة منه، عليه السلام،

وقبول الله لها، قال تعالى: "**فَتَلَقَّى آدم من ربه كلماتٍ فتَاب عليه إِنهُ هُو التوابُ الرحيمُ**" (البقرة/ 37)، وبقاء الغضب والسخط الإلهي على عدوه الذي أخرج من الجنة مذموما مدحورا فاستحق اللعنة إلى يوم الدين، قال تعالى: "**قَالَ فَاخْرُج منْها فَإِنك رجيم. وإن عليْك لعنَتي إِلى يوم الدين**" (ص / 77-78).

وقد جاء في هذه الآية التي تبين توبة الله على آدم قراءتان، حيث"قرأ ابن كثير بنصب آدم ورفع كلمات، والباقون برفع آدم ونصب كلمات بتنوين الكسر الظاهر، لأنه جمع مؤنث سالم"(7) فكانت القراءتان في أعلى درجات البيان حيث دلت كل قراءة على معنى في غاية الجمال، فعلى رفع آدم ونصب الكلمات يكون المعنى أن آدم قد استقبل الكلمات بالأخذ والقبول، والعمل بها. وعلى نصب آدم، ورفع الكلمات، يصبح المعنى أن الكلمات قد استقبلته، فكأنها مكرمة له، لكونها سبب العفو عنه(8).

فهو إذن عفو مقرون بالأمن والاستقرار، أكرم به الله آدم-عليه السلام-وهذه النتيجة ليست خاصة به عليه السلام، وإنما هي لكل من تبع منهج الله الذي أنزله لهداية البشر، مصداقا لقوله تعالى: "**فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون**" (سورة البقرة/ 38)، أما عدوه الذي وقف في وجه الحق، ورفض الانصياع له، فلم يقتصر أمره على الخروج من الجنة، بل تعداه ليكون استقراره، ومن تبعه من الغاوين في نار جهنم، والعياذ بالله، قال تعالى: "**قَالَ فَالْحق والْحق أَقُولُ. لأملأن جهنم منْك وممن تَبِعك منْهُم أَجمعين**" (ص / 84-85).

ومن هذا المنطلق فإن البشرية لو التزمت بالإسلام منهجا، وسلوكا واعتقادا وعملا لعاشت في أمن وأمان، وسلم وإسلام، وذلك بهناءة العيش وهدوء النفس اللذين يتولد منهما البناء وإقامة الحضارة المبنية على الطهارة، وصدق من قال من الشعراء المسلمين الحكماء:

يمينا لو يمينك في يميني
لقبلت الأنام لنا يمينا

وكان ذلك لإعجاز هذا الكتاب الذي تظهره الأيام والسنون، عالي الجناب، سامق البناء، جميل النفحات، مرجع القاصي والداني في كل فنون الحياة.

هذا هو القرآن نبراس الهدى
دستورك الأسمى المنير المشرق
علم الطبيعة والحياة وحكمة
الآيات من تبيانه تتدفق
فالغرب لما سار سار بنوره
وعلا وقبل الغرب سار المشرق
يا قوم أحمد مجدكم قرآنكم
فهو الكتاب العالمي الأصدق

المطلب الثاني: محاولة إخراج نبي الله نوح -عليه السلام- ومن معه

أما نبي الله نوح -عليه السلام- من بعد آدم، فقد تعرض هو ومن معه من المؤمنين للإخراج من الأرض بأساليب متعددة، فتارة بأسلوب السخرية والاستهزاء، قال تعالى: "**ويصنَعُ الفُلْك وكُلما مر عليه ملأٌ من قَومه سخرُوا منْهُ قَالَ إِن تَسخَرُوا منا فَإِنا نَسخَرُ منْكُم كما تَسخَرُون. فَسوفَ تَعلَمُون من يأْتيه عذَاب يُخْزِيه ويحل عليه عذَاب مُقيم**" (هود/ 38-39)، وتارة بأسلوب التهديد من أجل ترك المبادئ السامية التي يدعو إليها "**قَالُوا لَئِن لَم تَنْتَه يا نُوحُ لَتَكُونَن من الْمرجُومين**" (الشعراء/ 116)، والمقصود بالرجم هنا رجمه بالحجارة،(9) ولا شك في أن هذا أسلوب من أساليب الإخراج من الأرض بالقتل، وهو وعيد يشمل ضمنا من تبعه من المؤمنين.

وتارة بالطلب منه أن يطرد من تبعه من الضعفاء، بحجة أنهم ليسوا من طبقتهم الراقية، ولا من مستواهم الرفيع، فكان رده عليهم، "**ويا قَومِ لا أَسأَلُكُم عليه مالاً إِن أَجرِي إِلا على الله وما أَنَا بِطَارِد الذين آمنُوا إِنهُم مُلاقُو ربهِم ولَكني أَراكُم قَومًا تَجهلُون**"(هود/ 29)، يقول صاحب الظلال: "يفهم من هذا الرد أنهم طالبوا أو لوحوا له بطرد من حوله"(10)، وما هذا الأسلوب إلا حيلة يحاولون من خلالها تشتيت من رغب بالدعوة، وإبعاد من آمن بها، الأمر الذي يضعف في نظرهم من شأنها، ويمهد للقضاء عليها، ولكن الحريص على الإيمان، وطالب الجنان لا تنطلي عليه مثل هذه الأمور، بل يموت من أجل عقيدته، إحياء لها، وإماتة لمناوئيها.

وتارة يحاولون إخراجه ومن معه بالمؤامرة عليه بالقتل، قال تعالى: "**ومكَرُوا مكْراً كُباراً**" (نوح /22)، فما هذا المكر الذي تتحدث عنه الآيات؟ "المكر: إخفاء العمل أو الرأي الذي يراد به ضر الغير، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضرر، قيل: كانوا يدبرون الحيلة على قتل نوح، وتحريش الناس على أذاه، أو أذى أتباعه"(11).

وإلى هذه المؤامرة تشير آيات القرآن في قوله تعالى: "**إِن هُو إِلا رجُلٌ بِه جِنةٌ فَتَربصُوا بِه حتى حينٍ**" (المؤمنون / 25)، وقوله "**فَإِذَا استَويتَ أَنْتَ ومن معك على**

الفُلْكِ فَقُلِ الحمدُ لِلهِ الذي نَجانَا من القومِ الظالِمين" (المؤمنون / 28).

وبعد فشل هذه المحاولات في إخراج نبي الله نوح -عليه السلام- ومن معه، يكون خطاب القوم له بأسلوب يشكك في صدقه " **قَالُوا يا نُوحُ قَد جادلتَنَا فَأَكْثَرتَ جِدالَنَا فَأْتنا بِما تَعِدُنَا إن كُنْتَ من الصادقين**" (هود/ 32) وفي التعبير بـ (إنْ) الشرطية التي تفيد التشكيك بفعل الشرط الواقع بعدها بدلا من (إذا) التي تفيد تحقق وقوع فعل الشرط(12) في فاصلة الآية: "إن كنت من الصادقين" دلالة واضحة على مدى الطعن والتشكيك في صدق هذا النبي الكريم، ليس هذا فحسب، بل إنهم يستخدمون أسلوبا آخر ينفر الداعي، ويحمله على مغادرة المكان الذي لا يكون كلامه فيه موطن احترام، حيث كان القوم يستغشون الثياب، ويصمون الآذان عن السماع، وإلى هذا الأسلوب جاءت الإشارة في القرآن على لسان نبي الله نوح عليه السلام "**وإني كُلما دعوتُهُم لِتَغْفِر لهُم جعلُوا أَصابِعهُم في آذَانِهم واستَغْشَوا ثِيابهُم وأَصروا واستَكْبرُوا استكْبارًا**"(نوح /7)، ولكن هذا التصرف لم يكن ليوهن من عزيمة هذا النبي الكريم -عليه السلام- وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: "**ولَقَد أَرسلْنَا نُوحًا إلى قَومِه فَلَبِثَ فيهم أَلْفَ سنَةٍ إلا خَمسين عامًا فَأَخَذَهُمُ الطوفَانُ وهُم ظَالِمُون**" (العنكبوت/ 14)؛ ففي تعبير القرآن عن المدة التي قضاها نوح -عليه السلام- بين قومه بالسنة، من الدلالة على المشقة والعنت الذي لقيه عليه السلام، ما لا يخفى "فالسنة تلقي مـن منطوقها ظـلال الشدة، والقـحط، والصعـوبة، والعام عـلى العكس من ذلك"(13).

وبعد وصول الأمر مع القوم إلى طريق مسدود، ونفاد الوسائل التي يرجى بها إسلامهم ، يتضرع النبي الكريم إلى الله، لتفريج كربه، ونصرته ومن معه "**فَدعا ربهُ أَني مغْلُوب فَانْتَصر**" (القمر/ 10)، "**قَالَ رب إن قَومي كَذبُون. فَافْتَح بيني وبينَهُم فَتْحًا ونَجني ومن معي من الْمُؤْمنين**" (الشعراء/ 117-118).

وقد كان نبي الله نوح في هذا الخطاب في غاية الأدب النبوي، "فانظر إلى أدب النبوة حين شكا لربه تكذيبهم ولم يشك من تهديدهم له بالرجم، لأن الله عالم بحاله، مطلع عليه، ولأنه يهمه أن يصدقه قومه ويؤمنوا به"(14) فكانت العاقبة التمكين لنوح-عليه السلام-ومن معه من المؤمنين في الأرض على قلتهم، وكثرة عدوهم، فهلك هذا العدو الآثم، الذي حرص على إخراجه ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: "**فَفَتَحنَا أَبواب السماء بِماءٍ مُنْهمر. وفَجرنَا الأرض عُيُونًا فَالْتَقَى الماءُ على أَمرٍ قَد قُدر**" (القمر/ 11-12).

لقد نجاه الله ومن معه من الكرب العظيم، نجاه من الطغاة الظالمين "**فَنَجيناهُ وأَهلَهُ من الْكَربِ الْعظيم. ونَصرنَاهُ من الْقَومِ الذين كَذبُوا بِآياتنَا إنهُم كَانُوا قَوم سوءٍ فَأَغْرقْنَاهُم أَجمعين**" (الأنبياء/ 76-77) وتحققت سنة رب العالمين بالتمكين للمؤمنين، فكان الهبوط لنوح، عليه السلام، ومن معه بأمن وسلام "**قيلَ يا نُوحُ اهبِطْ بِسلامٍ منا وبركاتٍ عليْك وعلى أُممٍ ممن معك**" (هود/ 48) فآلت العاقبة بالتمكين والاستخلاف للمؤمنين في الأرض "**فَكَذبُوهُ فَنَجينَاهُ ومن معهُ في الْفُلْك وجعلْنَاهُم خَلائِفَ**" (يونس/ 73).

المطلب الثالث: محاولة إخراج نبيي الله هود وصالح -عليهما السلام- ومن معهما

فأما الملأ من قوم نبي الله هود "عاد" فقد ساروا على النسق الذي سار عليه أسلافهم من العصاة ولم يتعظوا بما أصاب أسلافهم من قوم نوح -عليه السلام- مع أنهم كانوا من أحفاد الناجين معه "حيث سميت القبيلة باسم أبيهم وهو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام"(15) فتجرؤا على نبيهم بسبب اغترارهم بقوتهم وما آلوا إليه من نعيم، قال تعالى: "**فَأَما عاد فَاستَكْبرُوا في الأَرضِ بِغَيرِ الْحق وقَالُوا من أَشَد منا قُوةً**" (فصلت/ 15).

ولما كان التذكير للإنسان بما حل بمن سبقه من محن بسبب العصيان، وتذكيره بما حل عليه من إنعام، يحمله على الطاعة، كان التذكير من نبي الله هود-عليه السلام-لقومه على هذا النسق، قال تعالى: "**واذْكُرُوا إذْ جعلَكُم خُلَفَاء من بعد قَوم نُوحٍ وزادكُم في الْخَلْق بسطَةً فَاذْكُروا آلاء الله لعلَكُم تُفْلحُون**" (الأعراف/ 69).

ولم يزد هذا الأسلوب الحكيم في الدعوة القوم إلا حرصا على إخراج نبي الله هود ومن معه من دين الله بفتنتهم عن الحق، وردهـم إلى الباطل، فاتخذوا لإخـراجه، ومـن معه، أساليب متعددة؛ منها: رميه بالسفه، والكذب، بقولهم: "**إنا لَنَراك في سفَاهةٍ وإنا لَنَظُنك من الْكَاذبِين**" (الأعراف/ 66).

ومن شأن الإنسان الذي يكون على الحق، إذا وقع عليه الظلم والافتراء في أرضه، أن يضيق صدره بما يسمع ويرى من ظلم، فيخرج منها بحثا عن مكان لا يرى فيه ولا يسمع مثل هذه الأمور الباطلة ولكن نبي الله هوداً -عليه السلام- يصبر ويحتسب، فلا يرد عليهم القول بمثل قولهم، مع أنهم هم أهل السفه والكذب، بتكذيبهم، وهذا أسلوب عظيم في الدعوة، لرد العاصي إلى جادة الطريق "ففي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة بما أجابوه من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا

لهم مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله عز وجل ذلك، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء"(16).

ويحاول القوم إخراجه تارة أخرى، بطلبهم منه تعجيل العقاب، ليثبتوا عدم صدقه فيما يدعو إليه "**قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وحدهُ ونَذَر ما كان يعبُدُ آباؤُنا فأْتنا بِما تَعِدُنا إن كُنْتَ من الصادقين**" (الأعراف/ 70).

ويوضح حقيقة هذا الأسلوب ختم الفاصلة القرآنية بـ (إنْ) التي تدل على التشكيك بفعل الشرط الواقع بعدها وندرة وقوعه في قولهم" إن كنت من الصادقين" مع علمهم بحقيقة صدقه "فقولهم ذلك دليل على تصميمهم على تكذيبه واحتقارهم للنبوة"(17).

ولكن الصبر الذي تحلى به والإيمان والثقة بنصر الله والتمكين في الأرض، حمله على الثبات "وإن هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله ...إنه على يقين من وهن أهوال الباطل، وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش، ومهما استطال، كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه، وقوته بما فيه من سلطان الله"(18).

والسؤال هو: لمن كان الفوز بالتمكين في الأرض؟أهو للمؤمنين أم للمستهزئين الذين اتخذوا السبل المتعددة لإخراج نبي الله هود - عليه السلام- ومن تبعه من المؤمنين؟ لقد هلكت عاد، إنها سنة الله بالتمكين لعباده الصالحين، وإهلاك الظالمين، قال تعالى: "**ولما جاء أَمرُنا نَجينا هُودًا والذين آمنُوا معهُ بِرحمةٍ منا ونَجيناهُم من عذابٍ غليظٍ. وتلك عاد جحدُوا بِآيات ربهِم وعصوا رُسُلهُ واتبعُوا أَمر كُل جبارٍ عنيدٍ. وأُتبِعُوا في هذه الدنْيا لعنَةً ويوم القيامة أَلا إِن عادًا كفَرُوا ربهُم أَلا بُعدًا لِعادٍ قَوم هُودٍ**" (هود/ 58-60).

وانظر إلى دقة القرآن وهو يعبر عن هلاك الظالمين بالبعد، تماما كما عبر عن هلاك قوم نوح في قوله: "**وقيلَ بُعدًا لِلْقَوم الظالِمين**" (هود/ 44) للدلالة على مدى الراحة التي حظي بها هذا الكون بمهلك العصاة(19) فقد أخرجوا من الكون، وكان التمكين في الأرض للنبي الكريم ومن معه.

وأما ثمود قوم نبي الله صالح فلم يكونوا أحسن حالا من عاد قوم هود عندما جاءهم نبي الله - عليه السلام- يدعوهم إلى عبادة رب العالمين وطاعته، وترك طاعة المفسدين، قائلا: "**فَاتقُوا الله وَأَطيعُون. ولا تُطيعُوا أَمر المُسرفين. الذين يُفْسدُون في الأرض ولا يُصلحُون**" (الشعراء/ 150-152) فكان الاعتراض عليه، والتشاؤم منه، ومما جاء به، وكان قولهم "**اطيرنَا بِك وبمن معك قَالَ طَائِرُكُم عنْد الله بلْ أَنْتُم قَوم تُفْتَنُون**" (النمل /47). ولم يكتفوا بذلك، بل حاولوا إخراجه، ومن معه، والقضاء على دعوته"فقد خططوا لقتل نبيهم صالح -عليه السلام-، وحين يأتي أهل الدم ليطالبوا به يقسمون لهم أنهم لم يشهدوا هذا الأمر وأنهم لم يشهدوا مهلك أهل صالح، فمن باب أولى أنهم لم يشهدوا مهلكه هو "(20)

وإلى هذه المؤامرة يشير القرآن الكريم، في قوله تعالى: "**وكان في المدينَة تسعةُ رهطٍ يُفْسدُون في الأرض ولا يُصلحُون. قالُوا تَقاسمُوا بِالله لنُبيتَنهُ وأَهلهُ ثُم لنَقُولن لِوليه ما شَهدنَا مهلك أَهله وإنا لصادقُون**" (النمل/ 48-49)، فماذا كانت نتيجة هذه المؤامرة؟ لقد انتهت بالتمكين للمؤمنين، وهلاك الظالمين. إنها سنة رب العالمين في هذا الكون، ولكن الظالمين يغترون بقوتهم وسلطانهم "وكم يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة، ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترى، ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون"(21).

لقد حاولوا التآمر للقضاء عليه وعلى من معه فكان مكرهم مكرا عظيما "وقد سمى الله تآمرهم مكرا لأنه كان تدبيرا في خفاء، وأكد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته...وتنوينه للتعظيم"(22).

فكان أن رد الله كيدهم عليهم، فقال سبحانه: "**ومكرُوا مكْرًا ومكرنَا مكْرًا وهُم لا يشعُرُون. فَانْظُر كيفَ كان عاقبةُ مكْرِهم أَنا دمرنَاهُم وقومهُم أَجمعين. فتلك بُيُوتُهُم خَاوية بِما ظَلَمُوا إِن في ذَلك لَآيةً لِقَوم يعلمُون. وأَنْجينَا الذين آمنُوا وكانُوا يتقُون**" (النمل/50-53).

ومكر الله بهم هنا كان بإهلاكهم من حيث لايشعرون، وشبه إهلاكهم بالمكر على سبيل الاستعارة، أو انه أرسل إليهم ملائكة فدمغوهم بالحجارة، أو انه سبحانه وتعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز منهم(23) فكانوا بذلك الهلاك عبرة وعظة لأولي النهى.

وقد يتساءل البعض عن سبب هلاك كل العصاة من قوم نبي الله صالح، مع أن المتآمرين منهم على قتله تسعة رهط؟ والجواب أنهم استحقوا العقاب، لكونهم اشتركوا في المؤامرة، وإن كان المنفذون هم تسعة فقط "فعطف قومهم عليهم لموافقة الجزاء للمجزي عليه، لأنهم مكروا بصالح وأهله فدمرهم الله"(24).

فأخذتهم الصيحة فمحقت الظالمين عن آخرهم "**وأَخَذَ الذين ظَلَمُوا الصيحةُ فَأَصبحُوا في ديارهم جاثمين. كأَن لم يغْنَوا فيها أَلا إِن ثَمُود كفَرُوا ربهُم أَلا بُعدًا لِثَمُود**" (هود /67-68) وحظي الكون براحة عظيمة بإبعاد الظالمين، ولذا كان تعبير القرآن عن هلاكهم بالبعد كما كان التعبير عن زوال من سبقهم من الظالمين.

المطلب الرابع: محاولة إخراج نبيي الله إبراهيم ولوط عليهما السلام ومن معهما

وهذا نبي الله إبراهيم يتعرض لضغوطات من قومه، حين دعاهم إلى عبادة الله، فتآمروا عليه بالقتل والتحريق "**فَما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا اقتُلوهُ أو حرقُوهُ**" (العنكبوت / 24)

ويتعرض لمحاولة الإخراج من أقرب الناس إليه- من والده- وذلك بالتهديد بالرجم والهجر، بقوله: "**قالَ أراغبٌ أنْتَ عن آلِهتي يا إبراهيمُ لئِن لم تَنْتَه لأرجُمنك واهجُرني مليا**" (مريم/ 46)، وهذا كلام عجيب، صدر عن الأبوة للبنوة؛ إذ الأصل في الأبوة أن تكون موطنا للرحمة والرأفة بالبنوة ولكنه العناد، والمكابرة بالباطل، والإصرار على الكفر الذي يحمل الأب على تهديد ولده بهذه الطريقة "وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره، ليدل على أن هذا الهجران في معنى الطرد، والخلع، إشعارا بتحقيره"(25).

فماذا كانت نتيجة هذه المحاولات؟هل تمكن الطغاة من رجمه أم ماذا حدث؟

لقد كانت النتيجة النجاة، والتمكين لإبراهيم -عليه السلام- "**فأنْجاهُ اللهُ من النارِ إن في ذَلِكَ لآياتٍ لِقومٍ يُؤْمِنُون**" (العنكبوت/ 24)؛ فقد سلب الله من النار خاصية الإحراق التي أشعلها أهل الزيغ والضلال، لإخراجه من الأرض، وجعلها بردا، وسلاما على إبراهيم"**قُلْنَا يا نارُ كُوني بردًا وسلامًا على إبراهيم**"(الأنبياء/69)، وكان أن اعتزلهم عليه السلام بعد إصرارهم وتمسكهم بالباطل، وفي ذلك يقول الحق تعالى على لسان إبراهيم: "**وأعتزِلُكم وما تَدعُون من دُونِ الله وأدعُو ربي عسى ألا أكُون بِدُعاء ربي شَقِيا**" (مريم/ 48) وهذا أسلوب من أساليب الدعوة للمفاصلة بين الحق والباطل "فالاعتزال أمر مطلوب شرعا، إن وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل من الحق"(26).

لقد ترتب على هذا الاعتزال والخروج، أن عوضه الله خيرا، فوهب له أولادا أنبياء، آنس بهم وحشته عن فراق قومه " **فلما اعتَزلهُم وما يعبُدُون من دُونِ الله وهبنا لهُ إسحاقَ ويعقُوب وكُلاًّ جعلنَا نَبِيا**" (مريم/ 49)، وكانت هذه النجاة والإكرام لإبراهيم –عليه السلام- آيات للمؤمنين على مر السنين، مرشدة إلى أن سنة الله جارية بالنجاة لأهل الإيمان، والضياع والخسران لأهل العصيان.

وكذا الحال مع نبي الله لوط-عليه السلام-ومن معه من المؤمنين، فقد تعرضوا من قومهم لمحاولات الإخراج أيضا، وذلك حين جاءهم نبي الله لوط، يدعوهم لعبادة الله التي تحقق لهم الطهارة من دنس المعصية، التي اشتهروا بارتكابها، والسبق إليها، وهي جريمة اللواط(27)، قال تعالى: "**ولُوطًا إذْ قالَ لِقومه أتأْتُون الْفاحشةَ ما سبقكُم بها من أحدٍ من العالمين. إنكُم لتأْتُون الرجالَ شَهوةً من دُونِ النساء بلْ أنْتُم قَوم مُسرِفُون**" (الأعراف/ 80-81).

فبنوا على هذا التوجيه النبوي تهديدهم للنبي الكريم، بالإخراج من الأرض "**قالُوا لئِن لم تَنْتَه يا لُوطُ لتكُونَن من الْمُخْرَجِين**" (الشعراء/ 167).

وحين أصبح للوط -عليه السلام- أتباع في دعوة الحق، كان اقتراح الملأ من قومه إخراجه ومن معه من الأرض" **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ من قريتكُم إنهُم أُنَاس يتَطَهرُون**" (النمل/ 56).

لقد اتجه قوم نبي الله لوط إلى التلويح، والتهديد له بالقوة، ولا غرابة في ذلك؛ فإنها ملامح المعركة تتكرر ولا تتغير... إن العصاة يتوجهون إلى الداعية، ليكف عن الدعوة، فإذا استمسك بدينه وحرص على صلته بربه، وأدى ما عليه بأمانة، ولم يرهب تخويفهم بالذي يملكونه من وسائل القوة والتعذيب، فإنهم يتحولون له ولأتباعه، لفتنتهم، بالوعد تارة، وبالوعيد والتهديد تارة أخرى. فماذا كانت عاقبة الأمور؟ ولمن كان التمكين؟ وهل تمكن القوم من إخراج المؤمنين ?لقد أخرج نبي الله لوط -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين من القرية، لكنه كان إخراجا للنجاة من العذاب الذي سيحل عما قريب بالظالمين"فجاءت إرادة الحق سبحانه وتعالى موافقة لما طلبه قوم لوط، أخرج الله لوطا ومن معه فعلا من القرية، ولكنه أخرجهم لينجيهم من العذاب"(28) فكان ما ظنه الملأ من قوم لوط خيرا لهم وشراً يحل بنبي الله لوط ومن معه من المؤمنين، إذا به شر يحل بالعصاة، فقد ترتب على هذا الإخراج نزول العذاب بهم، ونجاة المؤمنين، قال تعالى: "**فأنْجيناهُ وأهلهُ إلا امرأتَهُ كانَتْ من الْغَابِرِين. وأمطَرنَا عليهم مطرًا فانْظُر كيفَ كان عاقبةُ الْمُجرِمين**" (الأعراف/ 83-84).

إذن فالمؤمنون قد يخرجون من الأرض، كما حصل للوط ومن معه، ومن قبل إبراهيم عليه السلام ولكن العبرة بالعاقبة، ونهاية المطاف، فقد كانت نهاية الأمر أن جعل الله عالي الأرض التي كان يسكنها قوم لوط في غور الأردن سافلها، قال تعالى: "**فلما جاء أَمرُنَا جعلنَا عالِيها سافلها وأَمطَرنَا عليها حجارةً من سجيلٍ منْضُودٍ. مُسومةً عنْد ربك وما هي من الظالِمين ببعيدٍ**" (هود/ 82-83).

فحل الهلاك بالظالمين، ومنهم امرأة نبي الله لوط، التي هلكت مع الهالكين، وكانت النجاة للمؤمنين، إنها النجاة لمن تهددهم العصاة، "إنها سنة الله الجارية، أنه عندما يتمحض الحق والباطل، يقفان وجها لوجه في مفاصلة كاملة تجري سنة

الله التي لا تتخاف... وهكذا كان"(29) فثبت التمكين للمؤمنين وهلك الظالمون، المعتدون، وبقيت ديارهم عبرة للمعتبرين "**ولقد تَركْنَا منْها آيةً بينَةً لِقَومٍ يعقلُون**" (العنكبوت / 35).

المطلب الخامس: محاولة اخراج أنبياء الله شعيب وموسى وعيسى- عليهم السلام- ومن معهم

فأما قوم نبي الله شعيب، فقد ساروا على نهج من سلف من العصاة، حيث دعاهم نبيهم إلى عبادة الله لتصلح أحوالهم، وأخلاقهم، قال تعالى: "**وإلى مدين أَخَاهُم شُعيبًا قَالَ يا قَوم اعبُدُوا الله ما لَكُم من إِلَهٍ غَيرُهُ ولا تَنْقُصُوا الْمكْيالَ والْميزان إِني أَراكُم بِخَيرٍ وإِني أَخَافُ علَيكُم عذَاب يومٍ مُحيط. ويا قَوم أَوفُوا الْمكْيالَ والْميزان بِالْقسط ولا تَبخَسُوا الناس أَشْياءهُم ولا تَعثَوا في الأَرض مُفْسدين**" (هود/84-85) وفي هذه الدعوة من النبي الكريم حماية للإنسان من الاعتداء على حق غيره، الأمر الذي يورث الاستقرار والتمكين، ولذا ذكرهم شعيب - عليه السلام - بعاقبة من سلف، ممن حاول الإفساد في الأرض فأخرجوا منها بالهلاك، قائلا: "**ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد**" (هود/89)، فكان اعتراضهم على هذه النظافة، كما اعترض عليها من سبقهم من الفساق "**قَالُوا يا شُعيبُ أَصلاتُك تَأْمُرُك أَن نَتْرُك ما يعبُدُ آباؤُنَا أَو أَن نَفْعلَ في أَموالنَا ما نَشَاءُ إِنك لأَنْتَ الْحليمُ الرشيد**" (هود/ 87).

ولما عجزوا عن المحاورة والمناقشة والمجادلة، استخدموا عدة أساليب لإخراجه من الأرض، منها: التهديد بالرجم "**قَالُوا يا شُعيبُ ما نَفْقَهُ كَثيرًا مما تَقُولُ وإِنا لَنَراك فينَا ضعيفًا ولَولا رهطُك لَرجمنَاك وما أَنْتَ علَينَا بِعزِيز**" (هود/91). ومنها: اتهامه بالسحر ليحذره الناس وينبذوه وهذه وسيلة من وسائل الإبعاد والإخراج من الأرض قال تعالى: "**قَالُوا إِنما أَنْتَ من الْمُسحرِين. وما أَنْتَ إِلا بشَر مثْلُنَا**" (الشعراء/ 185-186). ومنها: التهديد بإخراجه ومن معه من القرية إلى أماكن أخرى "**قَالَ الْملأُ الذين استَكْبرُوا من قَومه لَنُخْرِجنك يا شُعيبُ والذين آمنُوا معك من قَريتنَا أَو لَتَعُودُن في ملَّتنَا**" (الأعراف/ 88) فقد توعدوا نبي الله شعيباً -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين بأحد أمرين "إما أن يرجعوا عن دينهم الجديد، ليسيروا في ملة الكفر، وإلا فإنهم سيخرجونهم من بلادهم بالقوة، ويجردونهم من جنسيتهم، ويسلبونهم كل ما يترتب عليها من حقوق"(30) ولا شك في أن المقصود إخراجه من بينهم إخراج إهانة وتضييق "فمعنى تهديد الكفار لشعيب والمؤمنين، أنهم سيخرجونهم من المكان الذي تتوفر فيه كل متطلبات الحياة، إلى مكان قفر لا يصلح للحياة"(31).

فلما ألقى الملأ هذا التهديد بالإخراج، أو العودة لملتهم، وعلم النبي الكريم، أن الأمور قد وصلت مع قومه إلى طريق مغلق، اتجه إلى الله يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله "**ربنَا افْتَح بيننَا وبين قَومنَا بِالْحق وأَنْتَ خَيرُ الْفَاتحين**" (الأعراف /89) فجاء النصر والتمكين للمؤمنين من رب العالمين، وحل الفشل بمحاولات الظالمين ومؤامراتهم، وانتهت بهلاكهم، قال تعالى: "**ولما جاء أَمرُنَا نَجينَا شُعيبًا والذين آمنُوا معهُ بِرحمةٍ منا وأَخَذَت الذين ظَلَمُوا الصيحةُ فَأَصبحُوا في ديارِهم جاثمين. كَأَن لم يغْنَوا فيها أَلا بُعدًا لِمدين كما بعدتْ ثَمُودُ**" (هود /94 -95).

وقد حدثنا القرآن عن أنواع متعددة من العذاب حلت بقوم نبي الله شعيب - عليه السلام- فذكر الصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة؛ فإن قيل: إن الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكره تعالى في الأعراف أنه صيحة، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة ... فالجواب أنه قد اجتمع عليهم ذلك كله، أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس وخمدت الأجسام"(32). فأُبعد الظالمون من الأرض بإهلاكهم "**فَأَصبحُوا في ديارِهم جاثمين. كَأَن لم يغْنَوا فيها أَلا بُعدًا لِمدين كما بعدتْ ثَمُودُ**" (هود / 94-95) وبذلك حظي النبي ومن آمن معه بالتمكين، وأهلك عدوهم الظالم.

وأما رسول الله موسى-عليه السلام- فقد تعرض لمحنة الإخراج أيضا، ومن أول لحظة، بعد المحنة التي مر بها بنو إسرائيل على أيدي آل فرعون، من تقتيل أبنائهم، واستحياء نسائهم من أجل الخدمة، حين مر برجل من بني إسرائيل يقتتل مع رجل من آل فرعون، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي هو من عدوه، فكانت نتيجة ذلك أن وكز موسى الرجل الذي من آل فرعون فقضى عليه، الأمر الذي أعطى الملأ من آل فرعون فرصة التآمر عليه، لقتله، فيسر الله له رجلا يخبره بتلك المؤامرة " وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون"(33)، قال تعالى: "**وجاء رجُلٌ من أَقْصى الْمدينَة يسعى قَالَ يا مُوسى إِن الْملأَ يأْتَمرُون بِك لِيقْتُلُوك فَاخْرُج إِني لَك من الناصحين. فَخَرج منْها خَائفًا يتَرقَّبُ قَالَ رب نَجني من الْقَومِ الظَّالمين**" (القصص/20-21)، فخرج عليه السلام من أرض مصر، لكنه خروج ترتب عليه عودته، وبرفقته أخوه هارون، مؤيدين بالآيات البينات إلى فرعون

وملئه ويقابل هذا العود من فرعون وملئه بأساليب متعددة للإخراج مرة أخرى، ومن هذه الأساليب: السخرية والاستهزاء بموسى وما جاء به، قال تعالى: "**ولقد أرسلنَا مُوسى بِآياتنَا إلى فرعون وملئِه فقَالَ إني رسُولُ رب العالمين. فلما جاءهُم بِآياتنَا إذَا هُم منْها يضحكُون**" (الزخرف / 46-47). ومنها: أنهم عندما رأوا منه إصراره على دعوته، وقد أصبح له أتباع أخذوا يثيرون الشبهات حوله، بأنه ساحر يريد تفريق الجماعة، لإخراجهم من أرضهم "**قالُوا إن هذَان لساحران يُريدان أن يُخْرِجاكُم من أَرضكُم بسحرهما ويذْهبا بطريقتكُمُ المُثْلى**" (طه/ 63) وبهذا الأسلوب يحملون الناس على النفور منه، عليه السلام، الأمر الذي يحمل المرء في كثير من الأحيان على الخروج من هذه الأماكن، إن لم يكن من أهل الصبر وسعة الصدر، ولكن صبره، عليه السلام، ثبته أمام هذه الأحداث. ومنها: تحريض الملأ لفرعون من أجل إخراج موسى، ومن معه بالقتل، أو أي وسيلة مناسبة أخرى. قال تعالى: "**وقالَ الملأُ من قوم فرعون أَتَذَرُ مُوسى وقومهُ لِيُفْسدُوا في الأرض ويذَرك وآلِهتَك قالَ سنُقتلُ أَبناءهُم ونَستَحيي نساءهُم وإنا فَوقهُم قاهرُون**" (الأعراف / 127).

بل لقد صرح فرعون بضرورة قتل موسى -عليه السلام- : "**وقالَ فرعونُ ذَرُوني أَقْتُلْ مُوسى وليَدعُ ربهُ إني أَخَافُ أَن يُبدلَ دينكُم أَو أَن يُظْهر في الأرض الفَساد**"(غافر / 26).

ومن هنا كانت نصيحة مؤمن آل فرعون لقومه محذرا من عاقبة هذا الفعل كي لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من الأمم من عذاب، قال تعالى: "**وقالَ الذي آمن يا قوم إني أَخَافُ عليكُم مثْلَ يوم الأحزاب**" (غافر/30)، وفي هذا النداء أسلوب جميل في الدعوة؛ إذ لا يخفى ما في دعوته لهم بأنهم قومه من حمل لهم على الاصغاء لنصحه وترقيق قلوبهم.

ولما لم ينفع معهم النصح، حاولوا إيذاءه فأنجاه الله من مكرهم "**فَوقَاهُ اللهُ سيئَات ما مكَرُوا وحاقَ بِآل فرعون سُوءُ العذَاب**" (غافر/الآية45). لقد أنجى الله هذا الرجل، كما أنجى موسى ومن معه، "فيجوز أن يكون نجا مع موسى وبني إسرائيل، فخرج معهم، ويجوز أن يكون فر من فرعون، ولم يعثروا عليه"(34).

ثم إن هذا التهديد لم يكن لموسى وحده، بل لكل من تبعه، حتى إن السحرة الذين جاء بهم فرعون لتحدي موسى -عليه السلام- تعرضوا لمثل هذا التهديد من فرعون بعد إيمانهم "**قالَ آمنْتُم لهُ قبلَ أَن آذَن لكُم إنهُ لكَبِيرُكُمُ الذي علمكُمُ السحر فَلأقْطعن أَيديكُم وأَرجُلَكُم من خلافٍ ولأُصلبنكُم في جُذُوع النخْل ولتَعلمُن أَينَا أَشَد عذَابًا وأَبقَى**" (طه/71)، وفي استعمال القرآن للحـرف (في) بدلا من (على) في الصلب مع أنه يكون على جذوع النخل غاية في الدقة البلاغية "وذلك لأن الحرف يصور لنا ما في نفس فرعون من حقد وغيظ على أولئك السحرة المؤمنين"(35) وأنه لا يريد أن يبقي عليهم بل يريد استئصالهم والقضاء على أصلهم.

ثم إن موسى - عليه السلام- أخذ بأسباب النجاة فخرج بمن معه ليلا، فلحق به فرعون وجنوده فأغرق فرعون ومن معه وتحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين في الأرض؛ قال تعالى: "**ونُريدُ أَن نَمُن على الذين استُضعفُوا في الأرض ونَجعلهُم أَئِمةً ونَجعلهُمُ الْوارثين. ونُمكن لهُم في الأرض ونُري فرعون وهامان وجُنُودهُما منْهُم ما كانُوا يحذَرُون**" (القصص/5-6) "وذلك أن الله رد بني إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه، من الأموال والمساكن الحسنة"(36) وفي ذلك يقول تعالى: "**فَأَخْرجنَاهُم من جناتٍ وعُيُونٍ. وكُنُوزٍ ومقَامٍ كَريمٍ. كَذَلِكَ وأَورثْنَاها بني إسرائِيلَ**" (الشعراء /57-59).

وأما نبي الله عيسى بن مريم -عليه السلام- فقد تعرض لمحاولة الإخراج من الأرض بالتآمر على قتله، والقضاء على أتباعه، حيث تخبرنا الآيات عن مكر بني إسرائيل، ومحاولتهم قتله، عليه السلام، فنجاه الله برفعه إليه، قال تعالى: "**إِذْ قالَ اللهُ يا عيسى إني مُتَوفيك ورافعُك إلي ومُطَهرُك من الذين كفَرُوا وجاعلُ الذين اتبعُوك فَوقَ الذين كفَرُوا إلى يوم القيامة**" (آل عمران / الآية 55) فجاء الوعد الإلهي بالتمكين للمتبعين، المستمسكين بالنهج السديد؛ يقول ابن الجوزي: "في الذين اتبعوه أحد قولين أحدهما: أنهم المسلمون من أمة محمد لأنهم صدقوا بنبوته وأنه روح الله وكلمته... والثاني: أن النصارى فوق اليهود، وأن اليهود مستذلون مقهورون"(37) والذي أميل إليه وأرجحه، الرأي الذي يذهب إلى أن المراد بالأتباع المسلمون، وذلك لأن النصارى من المكذبين له، فمنهم من غالى فقال إن المسيح هو الله، ومنهم من قال ابن الله، ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة، وإلى هذا يشير الحافظ ابن كثير بقوله: "لما بعث الله محمدا -صلى الله عليه وسلم- فكان من آمن به يؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض"(38).

وقد رجح صاحب نظم الدرر، أن المراد بمن اتبعوا عيسى - عليه السلام- النصارى، وأن من اتسم بالنصرانية حقا أو باطلا هم فوق اليهود، ولا يزالون كذلك(39)، والواقع اليوم يشهد بخلاف ما ذكره، فاليهود هم فوق النصارى، بل إن أكبر دولة تتميز بالقوة المادية اليوم في العالم وهي

الولايات المتحدة الأمريكية دولة نصرانية، ومع ذلك تنصاع لليهود وتأتمر بأمرهم، فلا تعصي لهم أمرا، ولا تخالف لهم نهيا، وأرى أنه لا مانع من أن يكون في هذه الآيات الكريمة بشارة لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم- بالتمكين في الأرض، رغم ما تعانيه اليوم، من وطأة اليهود والنصارى عليها.

وقد بينت الأحاديث النبوية عاقبة عيسى - عليه السلام- وما يؤول إليه حاله بأنه ينزل في آخر الزمان، ويملأ الأرض عدلا ونورا، بعد أن تكون قد ملئت جورا وظلما، يقول عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده ليوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكما، مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد"(40) وهذا يؤيد ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن المراد بالوفاة لعيسى - عليه السلام- الواردة في الآيات السابقة النوم، وليس الموت(41) وكذا لا دليل على ما ذهب إليه النصارى من أنه توفي سبع ساعات ثم رفعه الله إليه(42) الأمر الذي يؤكد أن عاقبته في آخر الزمان ومن معه من المؤمنين أتباع سيد المرسلين التمكين في الأرض بالرغم من مؤامرات المعتدين.

المطلب السادس: محاولات إخراج خاتم النبيين -عليه السلام- ومن معه

وأما خاتم النبيين سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم- فقد تعرض كذلك لمحاولة الإخراج من الأرض وقد أشار لهذا الإخراج ورقة بن نوفل في أولى لحظات نزول الوحي، عندما قدم له الرسول مع خديجة، بقوله لسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-: "ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: أومخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا"(43).

ولقد جاء التحذير للمشركين من هذا الفعل، في كتاب الله، مقرونا ببيان عاقبة من حولهم ممن قبلهم من أهل القرى المجاورة، لأخذ العظة والعبرة، من خلال النظر بحال من سلف، قال تعالى: "**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**" (الأحقاف / 27) ولكن مشركي مكة لم يتعظوا بما حل بالقرى المجاورة وما أصاب الأمم من قبلهم، حين حاولت إخراج الأنبياء وأتباعهم وأصرت على إخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم- والقضاء على دعوته بأساليب متعددة، منها: مؤامرة قريش لقتله -عليه الصلاة والسلام- قبيل هجرته إلى المدينة، من بعد أمره لأصحابه بالهجرة، قائلا: "إن الله جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها"(44) فهاجر غالب أصحاب رسول الله إلى المدينة، الأمر الذي أكد لقريش أنه سيغادرهم إلى مكان آخر " فقد رأوا أن محمدا سيلحق بأصحابه، ليجمع أمره فيستأصل شأفتهم ويقضي على تشامخهم واستكبارهم، ليطهر أرض البلد الحرام من أرجاسهم"(45) لهذا كان اجتماعهم في دار الندوة(46) للنظر في سبل القضاء على الرسول - صلى الله عليه وسلم- وعلى دعوته وكانت الاقتراحات بالحبس، أو الإخراج من مكة، إلى أن استقر الأمر على رأي عمرو بن هشام -أبي جهل- بقوله: "أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا، جليدا، نسيبا، وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفا، صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه ضربة واحدة، فيقتلوه، فنستريح منه"(47).

وإلى هذه المؤامرة أشار القرآن في قوله تعالى: "**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَو يَقْتُلُوكَ أَو يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**" (الأنفال/ 30) فكانت هجرة الرسول تبعا لهذه المؤامرة، فحل به عليه السلام وبأصحابه الكرام، بسبب إخراجهم من أرضهم ألم كبير، لدرجة أن بلالاً - رضي الله عنه - كان يرفع صوته بالدعاء على من أخرجهم من مكة، قائلا: "اللهم الْعن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء"(48) وكانت مواساة الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين ببيان عاقبة الظالمين، الحريصين على إخراج المؤمنين من أرضهم وديارهم، قال تعالى: "**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**" (محمد/13) وكان الوعد لرسول الله بالعودة والتمكين، تطييباً لنفسه -عليه السلام- وتهوينا عليه ما يلاقيه من ألم مغادرة مكة، قال تعالى: "**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**" (القصص/85) حيث نزلت هذه الآية في الحبشة، خلال الهجرة، يقول ابن عباس: لرادك إلى معاد: أي إلى مكة(49).

ولذا جاءت آيات القرآن تبين له -عليه السلام- سنة الله في من يحاولون إخراجه ومن معه "**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا**"(الإسراء /76).

وبعد هجرته عليه السلام ومن معه إلى المدينة، يتعرض لمحاولات بالإخراج منها، على أيدي اليهود والمنافقين، وأكبر شاهد على هذه المحاولات غزوة بني المصطلق، فقد حاول المنافقون في هذه الغزوة ذلك ، حين اختلف راع لرجل من المهاجرين، مع رجل من الأنصار حول من يرد الماء ليسقي أولا، فاستغلها عبد الله بن أُبي -كبير المنافقين- ليتخذها

أسلوبا للفرقة، وتمزيق الصف، وإخراج المؤمنين، حيث قال: "قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا وأنكروا منتنا... سمن كلبك يأكلك... والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"(50) وقد أشار القرآن الى هذه الحادثة في قوله تعالى: "**يقُولُون لِئن رجعنَا إِلى الْمدينَة لَيُخْرِجن الأعز منْها الأَذَل ولِله الْعزةُ ولِرسُولِه ولِلْمُؤْمنين**" (المنافقون/8) وجاء التهديد للمنافقين في المدينة بإخراجهم منها إن لم ينتهوا عن هذه المحاولات، فقال تعالى: "**لِئن لم ينْتَه الْمُنَافقُون والذين في قُلُوبِهِم مرض والْمُرجِفُون في الْمدينَة لَنُغْرِينك بِهِم ثُم لا يُجاوِرُونَك فيها إِلا قَليلا**" (الأحزاب/60).

فماذا كانت نتيجة مؤامرات مشركي مكة، واليهود والمنافقين في المدينة؟ لقد باءت بالفشل، وكان التمكين للرسول وللمؤمنين، فاستقرت الأمور في المدينة، وفتح الله عليهم مكة، وانطلق جنود الدولة الإسلامية من بعد ذلك ينشرون دين الله في مشارق الأرض ومغاربها، بعد سنين من المجاهدة والمثابرة، مدة من الزمان تقدر بـ"إحدى عشرة سنة من الجهاد، والصبر المتواصل في سبيل الله وحده، وهي الثمن والطريق إلى إنشاء مد إسلامي زاخر عظيم، لينشره في مشارق العالم ومغاربة وتساقط أمامه قوة الروم، وتتهاوى بين يديه عظمة فارس"(51).

ومن بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم- كانت المؤامرات على أصحابه، من الأعداء كفارس والروم، والمرتدين من سفهاء العرب، لإخراجهم من الأرض، ثم كان الغزو المغولي، والحروب الصليبية على العالم الإسلامي، وكان من أشدها خطرا الحروب الصليبية، التي تعرض لها المسلمون في أواخر القرن الحادي عشر، وبدأت بالانحسار منذ وقعت حطين سنة 1187م، التي كانت نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية التي تداعت في القرن الخامس عشر الميلادي(52)، وقد باءت كل هذه المحاولات لإخراج المسلمين من الأرض والقضاء على الإسلام بالفشل.

وها هو العالم الإسلامي اليوم يشهد هجمة صليبية ويهودية شرسة حاقدة على العالم الإسلامي، ومن ذلك ما يعاني منه أهل بيت المقدس والعراق وأفغانستان والشيشان، وسائر أرض البلقان وغيرها، فهو جزء متمم لما سبق من التضييق على الأنبياء وأتباعهم لتدميرهم في أرضهم والاستيلاء على مقدراتهم، والاستبداد بثرواتهم، والسيطرة عليها، ومثله ما يتعرض له كثير من الدعاة إلى الله اليوم من تضييق في بعض ديار المسلمين، بالحبس تارة والنفي تارة أخرى، والقتل والتشريد تارة ثالثة. كل ذلك ما هو إلا امتداد لما سبق من محاولات الإخراج. ولكن الناظر في سنة الله من خلال ما سبق ومن خلال الاستقراء للأحداث السابقة الذكر مع الأنبياء وأتباعهم، وما عانوه من أقوامهم، والنتيجة التي آلوا إليها من التمكين، ما هو إلا تجسيد لوعد الله بنصرة المؤمنين وإهلاك الظالمين، وهي السنة الربانية المتحققة على مر السنين، قال تعالى: "**وكان حقّا علينَا نَصرُ الْمُؤْمنين**" (الروم/47)، ولكن هذا الأمر مبني على الأخذ بالأسباب، التي جعلها الله في هذا الكون سبلا للتمكين، وهو ما يطالعنا به المبحث القادم، بإذن الله تعالى.

المبحث الثاني: سبل التمكين في الأرض للمرسلين وأتباعهم كما أرشد إليها القرآن

تبين لنا من النظر في آي القرآن، واستقراء واقع الأمة الإسلامية على مر السنين أن الرسل وأتباعهم، كانوا يتعرضون لأساليب متعددة للإخراج من الأرض على أيدي أعدائهم، وكانت هذه المحاولات تنتهي بالفشل، وإن كانت تنجح في بعض الأحيان فترة من الزمان، ولكن العاقبة في النهاية كانت تؤول للمؤمنين بالتمكين والاستقرار، وللظالمين بالهـلاك والدمار.

وهذه النتيجة لا تعني أن يتقاعس أهل الإيمان فيركنوا إلى الأرض، ظانين أن التمكين لهم، والدمار لعدوهم يتحقق من غير الأخذ بأسباب العزة والمنعة والتمكين، وذلك أن الله عز وجل وضع في هذا الكون سننا كونية، تقوم على أساس الأسباب والمسببات "فقد تعلقت إرادة الله مثلا بأن لا يظهر عشب الأرض إلا بعد أن تتلبد الغيوم، وتتكاثف بقدر معين، ضمن درجة معينة من الرطوبة"(53) وكذلك الحال بالنسبة لتمكين المؤمنين في الأرض، ودحر كيد أعدائهم الذي لا يخرج عن قانون السببية، الذي قدره خالق هذا الكون؛ إذ لا بد من أن يأخذوا بالأسباب التي جعلها الله سننا كونية، للتمكين في الأرض، ليحظوا بعناية ربانية وعون إلهي.

فالله عز وجل وضع في هذا الكون الأسباب والمسببات، وطالب المؤمنين بالأخذ بالأسباب، كيف لا والحق سبحانه يطالب من مريم-عليها السلام- وهي في لحظات المخاض أن تهز جذع النخلة، ليتساقط الرطب، وهو قادر على أن يدلي لها الجذع من غير أن تهزه، ولكنه بذلك يعلمنا ضرورة الأخذ بالأسباب. وقد توصلت من خلال النظر في آي الذكر الحكيم إلى أن هذه الأسباب تشملها المطالب الأربعة الآتية:

المطلب الأول: تعميق الإيمان الصادق بالله في قلوب الناس

إن المتتبع لآي القرآن الكريم يجد أن الآيات تؤكد

ضرورة الإيمان بالله، وتركز على ذلك ولكنه ليس الإيمان الظاهري فحسب، بل الإيمان العميق الذي يحمل صاحبه على الاستجابة لأمر الله، واجتناب نهيه، ومن هنا جاء الوعد ممن لا يخلف الميعاد بالتمكين لأهل الإيمان الصادق، قال تعالى: "**وعد اللهُ الذين آمنُوا منكُم وعملُوا الصالِحات ليستَخْلِفَنهُم في الأرض كما استَخْلَفَ الذين من قَبلهم وليُمكنَن لهُم دينَهُمُ الذي ارتَضى لهُم وليُبدلنهُم من بعد خَوفِهم أَمنًا يعبُدُونني لا يُشرِكُون بِي شيَئًا ومن كفَر بعد ذَلِك فأُولئِك هُمُ الفاسِقُون**" (النور / 55).

فهذا وعد من رب العالمين بالتمكين والاستخلاف والأمن، لأهل الإيمان العميق، الذي يحمل على العمل الدقيق، وخوف مقام رب البيت العتيق، وهو المعنى الذي جسدته سورة إبراهيم التي تبين فشل الأمم في محاولتها إخراج الرسل، ومن معهم من الأرض، قال تعالى: "**وقَالَ الذين كفَرُوا لِرُسُلِهم لنُخرِجنكُم من أَرضنَا أَو لتَعُودُن في ملتنَا فأَوحى إِليهم ربهُم لنُهلكَن الظالِمين. ولنُسكنَنكُمُ الأَرض من بعدهم ذَلِك لِمن خَافَ مقَامي وخَافَ وعيد**" (إبراهيم/ 13-14).

نلاحظ من هذا النظم القرآني مدى حقد الظالمين، وجراءتهم على أهل الإيمان فيتكلمون وكأنهم ملاك الأرض، وأن المؤمنين لاحق لهم فيها(لنخرجنكم من أرضنا) "هكذا يقولون من غير حياء، حتى لكأن الرسل غرباء عن الأرض، لا حق لهم فيها مثلهم"(54) فلما تمادت هذه الأمم على الرسل، ومن آمن معهم، وأقسموا على إخراجهم ما لم يرجعوا عن الإيمان إلى ملة الكفر، أقسم الله على إهلاكهم، وإسكان الرسل ومن آمن بهم ديار المقسمين، وهل الإهلاك إلا إخراج من الأرض مقرون بالإذلال؟ وقد ختمت فاصلة الآيات باسم الإشارة (ذلك) في قوله (ذلك لمن خاف مقامي) "والإشارة بذلك إلى توريث الأرض للأنبياء، ومن آمن بهم، بعد هلاك الظالمين"(55).

ونلاحظ أن هذا الوحي إلى الأنبياء بإهلاك الظالمين، وتوريث المؤمنين أرضهم، وديارهم، قد اقترن بشرط خوف مقام الله ووعيده، ولا يتم ذلك إلا بالإيمان الصادق.

إذن فهو وعد لمن خاف مقامه بين يدي الله، وخاف وعيد الله فاتقاه بطاعته، وتجنب سخطه فنصره الله على من أراد به سوءاً وابتغى له مكروها من أعدائه، فيهلك عدوه ويخزيه، ويورثه أرضه ودياره(56).

وقد بين الله سبحانه حقيقة النصرة لأهل الإيمان، موضحا أنها حق، تعهد به على نفسه، فقال تعالى: "**ولقَد أَرسلنَا من قَبلِك رُسُلاً إِلى قَومهم فَجاءُوهُم بِالْبينَات فَانْتَقَمنَا من الذين أَجرمُوا وكَان حقًّا علينَا نَصرُ الْمُؤْمنين**" (الروم / 47)، وقال سبحانه مؤكدا هذه الحقيقة: "**ولقَد سبقَتْ كلمتُنَا لِعبادنَا الْمُرسلين. إِنهُم لهُمُ الْمنْصُورُون. وإِن جُنْدنَا لهُمُ الْغَالِبُون**" (الصافات/ 171-173).

وفي سورة الجن جاء تقرير هذه الحقيقة على لسان مؤمني الجن، قال تعالى: "**وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا**" (الجن/ 13).

وفي تقرير هذه الحقيقة القرآنية قد يطرح البعض سؤالا يشكل على بعض الناس، وهو ما دام ان نصرة الله للمؤمنين، وعد من رب العالمين، وأن من يؤمن بالله لا يخاف بخسا ولا رهقا، فما تعليل ما أصاب الرسول وأصحابه على أيدي المشركين، وما يصيب المسلمين في هذه الأيام من إيذاء على أيدي أعدائهم من صليبيين وشيوعيين ويهود وغيرهم؟

والجواب: أن الله لا يخاف وعده بنصرة جنده، أما ما يصيب المسلمين من بلاء وعناء على أيدي أعدائهم، فهو لأحد الأمور التالية:

أولا: أن يكون ذلك تمحيصا للمؤمنين بأن يميز الله المؤمن الصادق من غير الصادق، قال تعالى: "**الم، أَحسب الناسُ أَن يُترَكُوا أَن يقُولُوا آمنا وهُم لا يُفتَنُون** " (العنكبوت/ 1-2).

فيكون ما يصيب المؤمنين في بعض الأحيان من بلاء امتحانا يميز الله به الخبيث من الطيب، والصادق من غير الصادق، "فلا يبعد أن يبتلي الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين وتمحيصا للمؤمنين"(57).

ثانيا: رفع درجات المؤمنين وعلو منزلتهم يوم القيامة؛ وذلك بسبب صبرهم على البلاء، وما حل بهم من عناء، وفي ذلك يقول الحق تعالى: "**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين**" (البقرة/ 155)، ويقول عليه الصلاة والسلام: "عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن إصابته ضراء صبر، فكان خيرا له"(58).

ثالثا: تقصير المؤمنين في بعض الأحيان وقعودهم عن أداء الواجبات، وهو ما أشار إليه النص القرآني في قوله تعالى: "**وما أَصابكُم من مُصيبةٍ فبِما كسبتْ أَيديكُم ويعفُو عن كثير. وما أَنتُم بِمُعجِزِين في الأرض وما لكُم من دُونِ الله من ولي ولا نَصير**" (الشورى/30-31).

وهو ما يرشد إليه النظم القرآني في سورة النور أيضا، حيث جاء الأمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول مباشرة بعد وعده سبحانه للمؤمنين بالاستخلاف، والأمن، والتمكين في الأرض، في قوله تعالى: "**وأَقيمُوا الصلاةَ وآتُوا**

الزكَاةَ وَأَطيعُوا الرسُولَ لَعلكُم تُرحمُون" (النور/ 56)؛ فإذا نهض المؤمنون من كبوتهم، وتداركوا أنفسهم، وأدوا واجباتهم من غير تقصير، تحقق لهم وعده سبحانه بالنصر" فوعد الله مذخور لكل من يقوم على الشرط في هذه الأمة إلى يوم القيامة، وإنما يبطئ النصر، والاستخلاف، والتمكين والأمن، لتخاف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة، حتى إذا انتفضت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف، كل ذلك بوسائله التي أرادها الله، وبشروطه التي قررها الله، تحقق وعد الله الذي لا يتخاف"(59)، ولذا كان التوجيه الرباني للمؤمنين بضرورة الحرص على إقامة الشعائر بعد التمكين مخافة زواله، قال تعالى: "**الذين إِن مكناهُم في الأرض أَقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكَاةَ وَأمرُوا بِالْمعرُوف ونَهوا عنِ الْمُنْكرِ ولِله عاقبةُ الْأُمُورِ**" (الحج/41).

رابعا: الإملاء والإمهال للظالمين استدراجا لهم لتكون العقوبة أشد، وهو ما يغتر به كثير من الظالمين فيزدادون طغيانا وإيذاء للمؤمنين، ويظنون أن ما هم فيه من تمكين ظاهر، وإمداد بالمال والولد والجاه والسلطان، ما هو إلا إكرامٌ، "ولكن هـذا الإمداد ليس إلا استدراجا في المعاصي واستدراجا لهم إلى زيادة الإثم"(60)، قال تعالى: "**أَيحسبُون أَنما نُمدهُم بِه من مالٍ وبنين. نُسارِعُ لَهُم في الْخَيرات بل لا يشْعُرُون** " (المؤمنون /55-56)، ويقول سبحانه موضحا هذه الحقيقة: " **ولَولا أَن يكُون الناسُ أُمةً واحدةً لَجعلْنَا لِمن يكْفُرُ بِالرحمنِ لِبُيُوتهِم سُقُفًا من فضةٍ ومعارِج علَيها يظْهرُون. ولِبُيُوتهِم أَبوابًا وسُرُرًا علَيها يتكئُون وزُخْرُفًا، وإِن كُل ذَلِك لَما متَاعُ الْحياة الدنْيا والآخرةُ عنْد ربك لِلْمُتقين** " (الزخرف/ 33-35)، ومن هنا كان الخطاب القرآني موجها للرسول - صلى الله عليه وسلم- وللمؤمنين ليتبصروا هذه الحقيقة، قال تعالى: "**ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون. فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون.فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد** لله **رب العالمين**"(الأنعام/ 42-45)، وفي ذلك يقول الغزالي رحمه الله: "إن الكافر قد هيئ له ما هو أكثر، وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب"(61).

ولذا جاء التحذير للظالمين من الاغترار بما هم فيه من نعيم مؤقت، قال تعالى: "**فَإِن لِلذين ظَلَمُوا ذَنُوبًا مثْلَ ذَنُوبِ أَصحابِهِم فَلَا يستَعجِلُونِ**"(الذاريات /59)، ومن ذلك ما ضربه الله مثلا بـ"سبأ" حيث زال ما هم فيه من نعيم، وتحول إلى شدة ومحنة في نهاية المطاف، بعد إصرارهم على الكفر، فقال تعالى: "**لَقَد كَان لِسبإٍ في مسكَنهِم آيةٌ جنتَانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رِزق ربكُم واشْكُرُوا لَهُ بلْدةٌ طَيبةٌ ورب غَفُور. فَأَعرضُوا فَأَرسلْنَا علَيهِم سيلَ الْعرِمِ وبدلْنَاهُم بِجنتَيهِم جنتَينِ ذَواتَي أُكُلٍ خَمط وأَثْلٍ وشَيءٍ من سدرٍ قَليلٍ. ذَلِك جزينَاهُم بِما كَفَرُوا وهلْ نُجازِي إِلا الْكَفُور**" (سبأ/ 15-17).

ونلاحظ أن القرآن الكريم وهو يصور لنا ما حل بسبأ، يختار كلمة نجازي التي تدل على المفاعلة دون نجزي، وهي الموضع الوحيد في آي الكتاب المبين، "فقد وردت مرة واحدة في القرآن، وجاءت للمفاعلة لأن الله تعالى يكافئ المجرمين على أعمالهم ولا يزيد عليهم ولا يضاعف"(62).

خامسا: إن هذا التمكين للظالمين ما هو إلا لفترة مؤقتة لا تدوم، فالعواقب لأهل الإيمان، فإن اعترى الأنبياء ومن آمن بهم بعض الضيق في فترة من الزمان، فإن الأمور تؤول إلى نجاة المؤمنين، وهلاك الظالمين، قال تعالى: "**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**" (يوسف/ 110)، فالعبرة بالعاقبة وهي دائما تؤول للمتقين.

وهذا لا يعني أن أصحاب الحق من الأنبياء وأتباعهم لا يتعرضون للعنت والقتل ومحاولات الإبادة في بعض الأحيان، فقد قتل نبي الله زكريا، وقتل نبي الله يحيي على يد اليهود(63)، فعاب عليهم القرآن تلك الجرائم النكراء، فقال تعالى: "**أَفَكُلما جاءكُم رسُولٌ بِما لا تَهوى أَنْفُسُكُمُ استَكْبرتُم فَفَرِيقًا كَذبتُم وفَرِيقًا تَقْتُلُون**"(البقرة/ 87)، وتعرض رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، من بعد ذلك لمحاولات اغتيال من قبل المشركين ليلة الهجرة في مكة ومن يهود بني النضير في المدينة، وقتل عدد من أصحابه على أيدي المشركين في غزوة أحد وغيرها من الغزوات.

ولا تخفى علينا قصة أصحاب الأخدود التي قصها علينا القرآن الكريم في سورة البروج في قوله تعالى "**والسماء ذَات الْبُرُوجِ. والْيومِ الْموعُود. وشَاهِدٍ ومشْهُودٍ. قُتلَ أَصحابُ الْأُخْدُود. النارِ ذَات الْوقُود. إِذْ هُم علَيها قُعُود. وهُم علَى ما يفْعلُون بِالْمُؤْمنين شُهُود. وما نَقَمُوا منْهُم إِلا أَن يُؤْمنُوا بِالله الْعزِيزِ الْحميد**" (البروج/الآيات 1-8)" فقد بين الله فيها قصة طائفة من المؤمنين، قيل إنهم من النصارى الموحدين، ابتلوا بأعداء لهم طغاة حاولوا صدهم عن عقيدة التوحيد، فأبوا وامتنعوا، فحفرت الأخاديد في الأرض من قبل هؤلاء

الطغاة، وأشعلت فيها النيران وأحرق فيها المؤمنون(64).

وحديث القرآن عن إحراق المؤمنين في الأخدود دليل على أنهم كانوا أشد صلابة من الجبال في دينهم، وإصرارهم على إيمانهم، وحقهم في حرية العقيدة(65).

فاستشهد هؤلاء المخلصون، لكن عقيدتهم قد انتصرت، وخلّد القرآن الكريم ذكرهم فكانوا قدوة للمؤمنين المخلصين على مر السنين.

إذن فقد يقتل النبي ويقتل بعض أتباعه لكن عقيدتهم تنتصر وهو جانب من جوانب النصر، وهذا ما جسده لنا القرآن من خلال هذه الأمثلة.

وقد يكون النصر بهلاك الظالمين ونجاة المصلحين، ولقد ضرب القرآن الكريم لذلك مثلا بعاد وثمود، وغيرهم من الأمم، الذين كانوا متمكنين في الأرض، مستبدين فيها، مبينا ما حل بهم من عاقبة، قال تعالى: " **وعادًا وثمُود وقَد تَبين لكُم من مساكنهم وزين لهُمُ الشيطَانُ أعمالهُم فَصدهُم عن السبيل وكانُوا مُستَبصرين. وقارُون وفرعون وهامان ولقَد جاءهُم مُوسى بِالْبينَات فَاستَكْبرُوا في الأرض وما كانُوا سابِقين**" (العنكبوت /38- 40).

المطلب الثاني: إقامة شرع الله في الأرض

وهذا سبب عظيم أيضا من الأسباب التي لها أثرها في إرساء قواعد التمكين، والاستقرار في الأرض للمؤمنين، وهو بكل أسف ما تفتقده بلاد المسلمين اليوم، إما كفرا وعنادا، وإما خوفا من الأعداء، وإما سيرا مع الأهواء من أصحاب السلطان، والكبراء، وأصحاب المصالح المادية، القائمة على أساس الظلم.

ولما كانت الأمم لا يستقيم حالها من غير وجود من يلي أمرها ويشرف عليه كان لا بد للمسلمين ممن يلي أمرهم "فالاجتماع إذا حصل للبشر، وتم عمران العالم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طباعهم الحيوانية من العدوان، والظلم ...فيكون الوازع واحدا منهم، يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدهم"(66) وحتى يقيم ولي الأمر حياة الناس على أساس الاستقامة، لابد له من منهج قويم، ودستور يسير على أساسه، وهذا الدستور هو كتاب الله" **إن هُو إلا ذكْر لِلْعالمين. لِمن شَاء منكُم أَن يستَقيم**"(التكوير / 27-28)، ولهذا جاءت آيات القرآن تبين للناس ما يتحقق لهم من سعادة، وسكينة واستقرار ورغد عيش، بتحكيم شرع الله، قال تعالى: "**ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم**" (المائدة / 66).

وقد جاءت الآيات تبين لنا ما كان لبني إسرائيل بقيادة موسى- عليه السلام- من تمكين في الأرض حين حكّموا منهج الله وأقاموا شرعه فيهم قال تعالى: "**ونُرِيدُ أَن نَمُن على الذين استُضعفُوا في الأرض ونَجعلهُم أَئِمةً ونَجعلهُمُ الْوارِثِين. ونُمكن لهُم في الأرض ونُرِي فرعون وهامان وجُنُودهُما منْهُم ما كانُوا يحذَرُون**" (القصص/ 5-6)، إذن فماذا دهانا في هذا الزمان؟ نقصي شرع الله عن الحكم، "فهل لنا أن نلتفت لهذا؟ ونفهم أن الذي مكن لهم في الأرض إنما هو الكتاب المنزل والشريعة المقدسة، فإذا ما خرجوا منها، وابتعدوا عنها، ضربت عليهم الذلة والمسكنة"(67).

وما الضنك والمشقة، التي يعاني منها المسلمون اليوم إلا بسبب ابتعادهم عن الدين، وإعراضهم عن حكم الله في واقع الحياة، قال تعالى: "**ومن أَعرض عن ذكْرِي فَإِن لَهُ معيشَةً ضنكًا ونَحشُرُهُ يوم الْقِيامة أَعمى**" (طه/124)، ولذا نقل لنا القرآن الكريم استنكار الله على أهل الكتاب المتسبب عن إعراضهم عن حكم الله ورسوله، قال تعالى: "**أَلَم تَر إِلى الذين أُوتُوا نَصيبًا من الْكتَاب يُدعون إِلى كتَاب الله لِيحكُم بينَهُم ثُم يتَولى فَرِيقٌ منْهُم وهُم مُعرِضُون**" (آل عمران /23).

فإذا كان هذا استنكارا لموقف أهل الكتاب، حين يعرض فريق منهم عن منهج الله، فكيف يكون الإنكار الرباني إذا كان المعرض من المسلمين؟(68)

ومن هنا جاء الأمر الرباني للرسول - صلى الله عليه وسلم- ومن يأتي بعده من المؤمنين بضرورة تحكيم شرع الله، فهو المنهج الحق الذي يحق الحق، ويحذر من اتباع الأهواء، قال تعالى: "**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**" (المائدة/ 48)، وجاء التوجيه النبوي من بعد ذلك للناس، بضرورة التمسك بالكتاب والسنة، بقوله صلى الله عليه وسلم: "تركت فيكم أمرين لـن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي"(69).

المطلب الثالث: موالاة المؤمنين والحذر من نصرة الظالمين

والموالاة للمؤمنين سبب كذلك من أسباب التمكين، بما تحققه من وحدة وتماسك صف، وربط جأش، بحيث يكون أهل الإيمان كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وهذا ما أرشد إليه القرآن في قوله تعالى: "**إنما ولِيكُمُ اللهُ ورسُولهُ والذين آمنُوا الذين يُقِيمُون الصلاةَ ويُؤْتُون الزكاةَ وهُم راكعُون. ومن يتَول الله ورسُولهُ والذين آمنُوا فَإِن حزب الله هُمُ الْغَالِبُون**" (المائدة/ 55-56) وقد بينه عليه السلام بقوله: "مثل المؤمنين في

توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(70)، وذلك أن هذه الموالاة تؤدي إلى الترابط والتعاضد والتناصر بين المؤمنين فالوحدة قوة، والتفتت ضعف.

والموالاة بين المؤمنين هي أساس تماسك الجبهة الداخلية في الدولة المسلمة، فإن انتقلت الموالاة من بين المؤمنين، ليوالي بعضهم أعداء هذا الدين، حلت عند ذلك المخاطر بهم، وتعرضت بيضتهم لسلب المعتدين، واعتداء الظالمين، يقول عليه الصلاة والسلام: "وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضا"(71).

ومتى بدأ بعض المسلمين يهلك بعضا، ويتآمر بعضهم على بعض، ويوالي الأعداء أصبحت الخطورة على البيضة، فوقع الفشل وذهبت الريح، وهو ما عانت وتعاني منه أمتنا في هذا الزمان، بسبب موالاة بعض أقطارها لأعداء المؤمنين، وقد حذر الله من ذلك فقال: "**لا يتخذ المُؤْمِنُون الكافرين أولياء من دُون المُؤْمنين ومن يفْعلْ ذَلِك فَليس من الله في شَيءٍ إلا أَن تَتقُوا منْهُم تُقَاةً ويُحذرُكُمُ اللهُ نَفْسهُ وإلى الله المصيرُ**" (آل عمران/ 28) وهذا التحذير من موالاة الأعداء في غاية البلاغة؛ فقد جاء فيه التفات من الغيبة إلى الحضور "وهو التفات بديع من الغيبة إلى الخطاب لسر كأنه أخذة السحر؛ فإن موالاة الكفار والأعداء، وكل من يتآمر على سلامة الأوطـان، أمر مستسمج، مستقبح ينكره الطبع"(72).

ولخطورة هذا الموقف قيده الله بقوله: (ويحذركم الله نفسه)، يقول الآلوسي: "وفيه تهديد عظيم مشعر بتناهي المنهي عنه في القبح حيث علق التحذير بنفسه"(73).

والمنهج الرباني، وهو ينهى عن موالاة الأعداء، لا يمنع المسلم من المعاملة الحسنة "فالإسلام لا يمنع أن يعامل المسلم بالحسنى من لا يحاربه في دينه، ولو كان على غير دينه... ولكن الولاء شيء آخر غير المعاملة بالحسنى، فالولاء ارتباط وتناصر وتواد. وهذا لا يكون في قلب يؤمن بالله حقا إلا للمؤمنين الذين يرتبطون معه في الله، ويخضعون معه لمنهجه في الحياة، ويتحاكمون إلى كتابه في طاعة واتباع واستسلام"(74).

المطلب الرابع: إعداد القوة للقتال في سبيل الله

وأما إعداد العدة، والحرص على قوة الأمة، فهو أيضا جانب من جوانب الأخذ بالأسباب المادية لتمكين المؤمنين واستقرارهم؛ إذ الحق لابد له من قوة تحميه وتنصره، وتدافع عن بنيه، وإلى ذلك يشير عز وجل بقوله: "**وأَعدوا لهُم ما استَطَعتُم من قُوةٍ ومن رِباط الخَيل تُرهبُون به عدُو الله وعدُوكُم وآخَرين من دُونهم لا تَعلمُونَهُمُ اللهُ يعلمُهُم**"(الأنفال/ 60).

ذلك أن إعداد القوة للجهاد يرهب الأعداء، ويشعرهم بأن المسلمين أهل بأس وقوة، لا يقيمون على ضيم، ولا يرضون بالاعتداء، الأمر الذي يوجب على المسلمين بذل أقصى الجهد في إعدادها "فكلمة قوة جاءت منكرة في كتاب الله لتشمل كل قوة، ورباط الخيل إشارة، ورمز إلى كل ما عرف فيما بعد من طائرات وصواريخ، وكل ما يحتاج إلى عناية وتعلم"(75).

والقوة تبعث الأمن والطمأنينة في نفوس أبناء الأمة، وهم يشعرون بأنهم في دولة تدفع عنهم الظلم وتصد العاديات، وتقيهم ضربات الأعداء، وتحمي بيضتهم، قال تعالى: "**ولولا دفْعُ الله الناس بعضهُم ببعضٍ لهُدمتْ صوامعُ وبيع وصلواتٌ ومساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرًا ولينْصُرن اللهُ من ينْصُرُهُ إن الله لقَوي عزيز**"(الحج / 40).

ثم إن القوة ضرورية لدفع الظلم عن المؤمنين المظلومين في الأرض، قال تعالى: "**وما لكُم لا تُقَاتلُون في سبيل الله والمُستَضعفين من الرجال والنساء والوِلدانِ الذين يقُولُون ربنَا أَخْرِجنَا من هذه القَرية الظالِمِ أَهلُها واجعلْ لنَا من لَدُنْك وليا واجعلْ لنَا من لَدُنْك نَصيرًا**" (النساء/ 75).

ومن هنا ينقل لنا القرآن على لسان نبي الله لوط، وهو يخاطب قومه أهمية القوة المادية، لدفع ظلم الظالمين المعتدين، وهو يحاول دفعهم عن ضيوفه قائلا: "**لو أَن لِي بِكُم قُوةً أَو آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ**" (هود/80)، ولذا فقد حرص الرسول، من أول لحظة في المدينة بعد الهجرة على إعداد الجيش وتشكيل قوة عسكرية مادية إلى جانب تربية الناس تربية إيمانية، على منهج الله، ومن بعد ذلك جاء الإذن للمسلمين بالجهاد بالسيف(76).

وكانت أول آية نزلت في الإذن بالقتال(77) هي قوله تعالى: "**أذن لِلذين يُقَاتَلُون بِأَنهُم ظُلمُوا وإن الله على نَصرهم لقَدير. الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بِغَير حق إلا أَن يقُولُوا ربنَا اللهُ ولولا دفْعُ الله الناس بعضهُم ببعضٍ لهُدمتْ صوامعُ وبيع وصلواتٌ ومساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ الله كثيرًا ولينْصُرن اللهُ من ينْصُرُهُ إن الله لقَوي عزيز** "(الحج /39-40).

والإسلام حين يطلب من أتباعه إعداد العدة، والتسلح بالقوة لا يهدف إلى استبداد المسلمين في الأرض، ولا يأمرهم بسلب خيرات العباد ظلما، كما تفعل الدول الغربية المتسلحة بالقوة المادية في هذه الأيام، وإنما هي قوة تقوم على أساس

العدل في القتال من أجل إعلاء كلمة الله، ونشر دينه، "وهو بذلك يختلف عن القتال في الحروب التي شهدها التاريخ الإنساني، والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسية واقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين، يريدون العلو في الأرض؛ فالهدف هو إقرار ضوابط الحق والعدل"(78).

وبذا نكون قد وقفنا على سبل التمكين، والاستقرار في الأرض، كما أرشد إليها رب العالمين في آي الذكر الحكيم، والتي ينبغي على المسلمين التمسك بها ليحققوا ما حققه أسلافهم من أمجاد، فلعل في أمة الإسلام من يجسدون ذلك في واقع الحياة، ليجلوا لهذه الأمة مرآة ماضيها، ويعيدوا إليها هيبتها وسلطانها، ويخرجوها مما هي فيه من جور ويحموها من تسلط الأعداء، ومكائد الجهلاء، فتحظى بالصدارة بين الأمم.

الخاتمة

الإخراج من الأرض قضية من القضايا التي عانى منها كثير من النبيين وأتباعهم في ما مضى من زمان ويعاني منها الأتباع في العصر الحاضر، الأمر الذي استوقفني للنظر في آي الكتاب المبين للاطلاع على سنة رب العالمين في هذه القضية، وقد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

1- إن محاولة إخراج المؤمنين من الأرض نهج سار، يسير عليه أعداء الدين على مر السنين، حتى إنه لا يكاد يخلو منه زمان.
2- قد تتحقق رغبة الظالمين لإخراج المرسلين وأتباعهم من الأرض والديار، للاعتداء على أموالهم، ولكن عاقبة الأمور تؤول بالتمكين للمؤمنين، ودحر كيد الظالمين.
3- إن ما يعتري المسلمين اليوم من إخراج من الأرض ما هو إلا حرب ضروس تتبع ما سبقها من محاولات باءت بالفشل بإذن الله تعالى.
4- إن التمكين في الأرض للمؤمنين وعد لا يتخلف من رب العالمين، ولكنه وعد يقوم على أساس الأخذ بالأسباب التي أشار إليها كتاب الله، وبينتها سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذه الأسباب هي:
   أ. تعميق الإيمان الصادق بالله في قلوب الناس.
   ب. إقامة شرع الله في الأرض.
   ج. موالاة المؤمنين والحذر من نصرة الظالمين.
   د. إعداد القوة للقتال في سبيل الله.
5- القوة المادية في حياة الناس وحدها لا تكفي لتحقيق التمكين في الأرض، وإنما هي سبيل ينبغي على المسلمين استخدامها لحماية الحق والذود عنه مقرونة بالإيمان العميق.
6- إن محاولات الأعداء المتكررة لإخراج المؤمنين تقوم على أساس حقد دفين على المنهج الرباني لما يدعو إليه من طهارة ونقاء ونظافة في المجتمعات .
7- إن بعض ما يصيب المسلمين في كثير من الأحيان، بإخراجهم من أرضهم وديارهم والاعتداء على أموالهم وضياعهم، سببه تقصيرهم في أداء واجبهم الذي أوجبه الله عليهم، وقد يكون في بعضه تمحيص لهم ليميز المؤمن الصادق من غير الصادق.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش

(1) وقد ورد خلاف في نبوة آدم عليه السلام؛ فيرى البعض أنه ليس برسول، لأن الرسول لا بد من أن يبعث إلى قوم سابقين للرسالة، وآدم لم يكن له قوم يبعث إليهم، والذي أطمئن إليه ما ذهب إليه جمهور المفسرين من القول بنبوة آدم عليه السلام ورسالته بعد هبوطه من الجنة إلى الأرض، وذلك لأن آدم أول البشر وقد أهبط من الجنة إلى الأرض، فكان لابد من أن يكون معه دستور يعبد الله على أساسه ويقيم حياته مع زوجته وبنيه تبعا له، فلا يعقل أن يتركه الله بلا منهج، وقد جاء في آي القرآن ما يشير إلى ذلك، قال تعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم" (البقرة/ 37)، وهذه الكلمات المعبرة عن التوبة تشعر بأن هنالك وحيا لآدم، علم من خلاله كيفية التوبة، وهذا يؤكد وجود الرسالة والمنهج الذي استقى منه هذه الكلمات "فقد أهبط آدم من الجنة إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه. وما من شك في أنه علّم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض "انظر سيد قطب، في ظلال القرآن، (1882/4).

(2) شعراوي، قصص الأنبياء، (279/1).

(3) الصابوني، صفوة التفاسير، (228/2).

(4) الزمخشري، الكشاف، (263/1). وقد ذكر الزمخشري وجوها أخرى لسر الجمع في الفعل (اهبطوا) فقال "قيل: إنه آدم وحواء وإبليس، وهو ضعيف لأن إبليس خرج قبلهما، وضعف هذا الرأي صاحب البحر المحيط كما ضعفه الزمخشري. أبو حيان، البحر المحيط، (262/1). أقول: ومع تضعيف الزمخشري وأبي حيان له إلا أنه

محتمل أيضا، وذلك لأنه وإن كان قد صدر الحكم بإخراج إبليس إلا أن ذلك لا يقتضي خروجه فور صدور الحكم، يحتمل أن يكون حكم بالخروج مع تأخير وقت التنفيذ، تماما كما يحكم على شخص بالقتل، ويتأخر تنفيذ حكم القتل فيه، فترة من الزمان.

(5) وإنما سمى الشيخ الشعراوي الجنة جنة التكليف لأنه صدر فيها تكليف بالعمل لآدم عليه السلام ومن بعد ذلك أصبحت دار جزاء، وسماها جنة التجربة، لأنه لم يطل فيها البقاء لآدم، ومن بعد ذلك أصبحت دار خلد من دخلها لا يخرج منها.

(6) الشعراوي، قصص الأنبياء، (202/1).

(7) القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، ط1، (28).

(8) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، (23/1). وانظر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (5/1).

(9) الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (308/7).

(10) سيد قطب، في ظلال القرآن، (1874/4)

(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (207/14). وانظر الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، (372/5).

(12) المراغي، علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، (161). وانظر المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، (185).

(13) عباس، إعجاز القرآن، (179).

(14) الشعراوي، قصص الأنبياء، (288/1).

(15) أبو حيان، البحر المحيط، (323/4).

(16) الزمخشري، الكشاف، (87/2).

(17) أبو حيان، البحر المحيط، (325/4).

(18) سيد قطب، في ظلال القرآن، (1312/3).

(19) بدوي، من بلاغة القرآن، (63).

(20) الشعراوي، قصص الأنبياء، (431/1).

(21) سيد قطب، في ظلال القرآن، (2646/5).

(22) عاشور، التحرير والتنوير، (284/8).

(23) الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، (561/8).

(24) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (285/8).

(25) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (120/8).

(26) الزمخشري، الكشاف، (468/1).

(27) اللواط: هو إتيان الذكور في أدبارهم، انظر يحيى بن شرف النووي، كتاب المجموع شرح المهذب، مكتبة الإرشاد، جدة، (22/ 20).

(28) الشعراوي، قصص الأنبياء، (678/2).

(29) سيد قطب، في ظلال القرآن، (1322/3).

(30) عباس، القصص القرآني، (211).

(31) الشعراوي، قصص الأنبياء، (801/2).

(32) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (223/2). وانظر الشنقيطي، أضواء البيان، (3729/02).

(33) الفخر الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، (202/12).

(34) ابن عاشور، التحرير والتنوير، (157/11). وانظر عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (143/14).

(35) عباس، إعجاز القرآن الكريم، (181).

(36) طنطاوي، التفسير الوسيط، (250/10).

(37) ابن الجوزي، زاد المسير، ط4، (397/1).

(38) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (347/1). وانظر الزمخشري، الكشاف، (367/1). وانظر ابن قيم الجوزية، بدائع التفسير، ط8، (500/1).

(39) انظر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (98/2).

(40) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، (182/2).

(41) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (346/1)، وانظر أبو حيان، البحر المحيط، (177/3)، وابن عطية، المحرر الوجيز، (105/3). وممن ذهب إلى خلاف هذا الرأي من المحدثين ورأى أن الوفاة حقيقية لعيسى عليه السلام محمد الطاهر ابن عاشور، انظر التحرير والتنوير، (258/3).

(42) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (162/1).

(43) أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي، محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (4/1)

(44) ابن كثير، البداية والنهاية، (169/3). وانظر عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (16/2).

(45) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ط3، (495/2).

(46) دار الندوة: دار لقصي بن كلاب كانت لاجتماع قريش لتقضي فيها أمورها وكان يدخلها من بلغ الأربعين فما فوق من ولد قريش وحلفائهم للشورى، انظر تقي الدين محمد، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، (138/2).

(47) عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، (22/3).

(48) أخرجه البخاري في كتاب الحج، صحيح البخاري، (175/4).

(49) البغوي، تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)، (38/5).

(50) بن واقد، كتاب المغازي، ط 3، (416/2).

(51) البوطي، فقه السيرة (158).

(52) العريني، تاريخ الحروب الصليبية، ط 3، (5/3).

(53) البوطي، كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، (288).

(54) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، (160/4)

(55) أبو حيان البحر المحيط، (417/6). وانظر النسفي، تفسير النسفي، (256/2).

(56) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (129/7). وانظر الخطيب، التفسير القرآني، (160/4).

(57) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (37/5).

(58) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، النووي، صحيح مسلم، (125/9).

(59) سيد قطب، في ظلال القرآن، (2530/4).

(60) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، ط1، (290/6). أقول وقد يكون هذا الإمهال أيضا من رحمة الله بهم لعلهم يعودون إلى جادة الطريق، ويلتحقون بركب الإيمان، ويكونون جندا للحق وسندا للدين، وهذا ما كان من قوم نبي الله يونس بعد أن غادرهم مغاضبا.

(61) الغزالي، إحياء علوم الدين، (121/4).

(62) القيسي، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد، ط1، (ص56).

(63) انظر الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، (230/1).

(64) انظر سيد قطب في ظلال القرآن، (3872/6).

(65) انظر الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ط1، (159/30).

(66) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ط1، (56/1).

(67) حجازي، التفسير الواضح، (816/2).

(68) سيد قطب، في ظلال القرآن، (382/1). وانظر حوى، الأساس في التفسير، (728/2).

(69) أخرجه مالك في كتاب الجامع، الإمام مالك بن أنس، الموطأ، ط3، (774)

(70) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة،، النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (139/7).

(71) أخرجه مسلم في، كتاب الفتن وأشراط الساعة، صحيح مسلم، (2215/4).

(72) محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ط7، (421/1).

(73) الآلوسي البغدادي، روح المعاني، (126/3).

(74) سيد قطب، في ظلال القرآن، (387/1).

(75) عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ط1، (314).

(76) الجهاد: هو بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله، انظر ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار، (121/4)، وانظر الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، (97/7).

(77) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، (209/2-210).

(78) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (338/2).

المصادر والمراجـع

القرآن الكريم

الآلوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث، بيروت.

ابن الجوزي، عبد الرحمن، 1987، زاد المسير في علم التفسير، ط4، المكتب الإسلامي، بيروت.

ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط1.

ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على حاشية الدر المختار، دار إحياء التراث، بيروت.

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر، تونس.

ابن غالب، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المجلس العلمي، فاس، 1977.

ابن قيم الجوزية، بدا ئع التفسير، ط1، دار ابن الجوزي، السعودية، 1993.

ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الجيل، بيروت.

ابن واقد، محمد، 1984، كتاب المغازي، ط3، عالم الكتب، بيروت.

أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت.

الإمام مالك بن أنس، الموطأ، ط3، دار الأفاق، المغرب، 1996.

البخاري، صحيح البخاري، دار الجيل، بيروت.

البغوي، علي بن محمد، لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

البقاعي، أبو الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.

البوطي، محمد سعيد، 1980، فقه السيرة، رمضان ط1، دار الفكر، بيروت.

البوطي، محمد سعيد، كبرى اليقينيات الكونية وجود الخالق ووظيفة المخلوق، دار الفكر، بيروت.

البيضاوي، أبو سعيد عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت.

حجازي، محمد محمود، التفسير الواضح، دار التفسير، الزقازيق.

حوى، سعيد، 1989، الأساس في التفسير، دار السلام للطباعة والنشر، بيروت.

الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، بيروت.

الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن وبيانه، ط7، دمشق، دار ابن كثير.

الرازي، محمد بن عمر، 1990، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

الزحيلي، وهبة، 1991، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، بيروت، ط1.

الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، بيروت.

سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت.

شعراوي، محمد متولي، قصص الأنبياء، دار الكتب العلمية، بيروت.

الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، عالم الكتب، بيروت.

الشوكاني، 1997، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، المكتبة العصرية، بيروت.

الصابوني ، محمد بن علي، 1998، صفوة التفاسير، دار الفكر، بيروت.

الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الجيل، بيروت.

طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط، دار نهضة مصر، القاهرة.

عباس، فضل حسن، 1990، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ط1، دار البشير، عمان.

عباس، فضل حسن، 1999، إعجاز القرآن، دار الفرقان، عمان.

عرجون، محمد الصادق، محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، ط2، دار العلم، دمشق.

العريني، السيد الباز، 1993، تاريخ الحروب الصليبية، ط 3.

العمادي، أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث، بيروت.

العمري، أكرم ضياء، 1998، السيرة النبوية الصحيحة، ط2، مكتبة العبيكان، الرياض.

الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار الفكر، بيروت.

القاضي، عبد الفتاح، 1995، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، ط1، مكتبة مصطفى عيسى، القاهرة.

القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت.

القيسي، عودة الله، سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد، ط1، دار البشير، عمان.

الكاساني، علاء الدين، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت.

المالقي، أحمد عبد النور، 1985، رصف المباني في شرح حروف المعاني، دار القلم، دمشق، ط2.

المالكي، أبو الطيب تقي الدين، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، دار الكتاب العربي، بيروت.

المراغي، أحمد مصطفى، 1982، علوم البلاغة "البيان والمعاني والبديع"، دار الكتب العلمية، بيروت.

المراغي، أحمد مصطفى، 1998، تفسير المراغي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.

المعافري، عبد الملك، السيرة النبوية، مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، دار الجيل، بيروت.

النووي، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، دار إحياء التراث، بيروت.

النووي، يحيي، كتاب المجموع شرح المهذب، مكتبة الإرشاد، جدة.

The Prophets and their Followers between Being Deported from their Land and Being Strengthened on Earth

*Nayel M. Abu Zeid**

ABSTRACT

The present study deals with the issue of strengthening Muslim believers on earth through verses of the Qura'an. Such strengthening allows Muslims to defend their own land against their enemies and those who try to deport Muslims from their land. The ways of how to achieve control over land are identified through verses of the Qura'an and Prophet Mohammad's Sunnah.

---

* Department of Religion's Fundamentals, Faculty of Sharia'h, Mu'tah University, Al-Karak, Jordan. Received on 16/3/2005 and Accepted for Publication on 10/10/2005.